الإفتتاحيّة

سفر القضاة
جولة أفق

رئيس التحرير

مقدمة

يبدو سفر القضاة، وهو الثاني بعد سفر يشوع بن نون في سلسلة أسفار الأنبياء الأولين أو السابقين، وكأنه تتمة لهذا الأخير؛ فهو يواصل الإخبار على طريقته عن إحتلال بني اسرائيل لأرض ما زالت تواجههم فيها العقبات المتنوّعة، وعن أعداء كُثر ينبغي التصدّي لهم والانتصار عليهم للتمكّن من الاستقرار والعيش بسلام. يتضمن السفر عرضاً عن حياة الأسباط في المرحلة التي تلي دخول أرض الميعاد وموت يشوع خليفة موسى، وحتى ولادة صموئيل وقيام النظام الملكي.

يبرز سفر القضاة قضية استملاك الأرض على حقيقتها، لا كما سبق ووصفها سفر يشوع؛ فهو لا يذكر انتصارات عسكرية مفاجئة، وسريعة، وشاملة، يحققها شعب متلاحم ومتراص في كتلة واحدة، ويجمعه إيمان واحد بالإله الأحد. والواقع هو أنه، بين القرنَيْن الثالث عشر والحادي عشر، عملت قبائل إسرائيل المشتّتة، وحتى أحياناً كثيرة المتخاصمة، على استعمار أراضٍ إلى حدٍّ ما غير آهلة، وبطريقة تدريجية، لا شاملة؛ وكان عليها أن تواجه باستمرار هجمات الجيران الذين كانوا معتادين على النهب والسلب، وبالتالي التنبّه الدائم لعمليات الانقضاض وخطر الاكتساح.

لكن ماذا يفيد المؤمن المسيحي أن يقرأ هذه الأمور التي حدثت قبل حوالي الثلاثة آلاف سنة، وفي بيئة تفصلها بدائيتها عن حضارتنا الحالية وعن تقدم البشرية الهائل: سنحاول اكتشاف الجواب شيئاً فشيئاً.

مَن هم القضاة؟

يعود اسم سفر القضاة إلى الرجال البارزين الذين أقامهم الله قادةً لشعبه، في الفترة الممتدة بين موت يشوع ونشأة صموئيل (٢:١٦-١٩؛ ٢:٩-١٠)، كي يخلّصه على يدهم من الضيقات المتلاحقة. لا يعني لقبهم (שפטים) أنهم كانوا قضاة بالمعنى القانوني للكلمة، حتى ولو حدث أن مارسوا هذه المهمّة بالذات، كما فعلت دبورة النبيّه (٤:٥). لا يَرِد هذا اللقب في صيغة الجمع إلاّ في قض ٢:١٦-١٨، ولكن وصف الحقبة الزمنية الممتدة من موت يشوع وحتى قيام الملكية بأنها «زمن القضاة» وارد في التقليد الكتابي (٢ صم ٧:١١؛ ٢ مل ٢٣:٢٢؛ را ١:١).

اقتبس العبريّون كلمة שפט عن الكنعانيين. ويخبرنا عاموس النبي عن وجود قاضٍ عند المؤابيين (عا ٢:٣). أما في العبرية، فيعني الفعل שפט أساساً «حكم» أي صحّح وضعاً مشبوهاً، أو أجرى العدل، أي نصر الحقّ المهدور، بمعنى أنه حقّقَ نوعاً من التحرير. يحكم القاضي بالعدل وفق الحق، أي أنه يجعل الحق ينتصر، فيتأمّن بذلك نوع من الخلاص؛ لذلك نصادف معاً كلمتَي «قاض» (שפט) و«مخلّص» (מושיע) (قض ٣:٩ و١٥)، كما يُستعمل فعل ישע بدلاً من «قاضَى» أو «حَكَمَ» (قض ٣:٩ و ٣١؛ ٦:١٥؛ ١٠:١). استناداً إلى هذه النظرة يسمّى عتنيئيل وأهود، مثلاً، «مخلِّصَين» (٣:٩ و ١٥).

فالقاضي إذاً هو الرجل القوي الذي يصحّح وضع اسرائيل عامة، أو وضع عدّة قبائل أو واحدة منها فقط، عندما يكون هذا الوضع عرضة لهجمات الشعوب المجاورة أو لخلل داخلي عائد إلى عدم أمانة الشعب المختار لله. يقوم بوظيفة الرئيس الذي يقود الشعب في المعركة وينتشله من الخطر. ويُنتقى القضاة من قِبل الله الذي يساندهم في أعمالهم الحربية ويضمن لهم النصر، لأنه هو الذي يخلص بواسطتهم.

ويُظهر السفرُ القضاةَ وكأنهم رؤساء مارسوا سلطتهم تباعاً على كل اسرائيل (٤:٤؛ ١٠:٢-٣؛ ١١:٢٧؛ ١٢:٧-١٤؛ ١٥:٢٠؛ ١٦:٣١)، لكن هذه الصورة لا تتوافق مع ما توحيه القصص التي تظهرهم مبادرين إلى إنقاذ عشيرة أو قبيلة، واستثنائياً مجموعة قبائل، من وضع ما حَرِج ودقيق. وعند انتهاء مهمّتهم ينحصر نفوذهم، ولا يعود لهم من سلطان سوى على المنطقة التي يقيمون فيها. فَهم إذاً أبطال حرب، يثيرون حميّة مَن كان دون قوة أو فاتراً في الأوقات العصيبة، ويوحّدون مَن كانوا متفرّقين ومشتّتين، ويعملون على استرجاع ما اغتُصب إلى شعبهم؛ لذلك يُعتبرون مقاومين ومحرِّرين، أعطاهم الله قدرة خارجة عن المألوف، عندما غلغل روحه في أعماقهم، أو تملّكهم روحه القدوس، ليردّوا الحق إلى الشعب، وبالتالي إلى الله. وتُفَسَّر المآثر التي تميّز القضاة بدخول روح الله فيهم (٦:٣٤؛ ١١:٢٩؛ ١٤:٦ و ١٩؛ ١٥:١٤). إنّ قصّة كل قاض هي مغامرة، تشكل «حلقة» قائمة بذاتها، تتردّد فيها الصيغ ذاتها التي تذكّر بخطيئة اسرائيل، ثم بعقاب الله له على ذلك، وأخيراً بقراره بتخليصه. هذه السلسلة من الحلقات (٣-١٦) تقطعها لمحات وجيزة عن هذا أو ذاك من القضاة الذين لم يحفظ عنهم التاريخ إلاّ القليل.

يمثّل القضاة ذهنية عصرهم، وهذا ما تشهد عليه قساوة خُلُقيتهم؛ فهم أبطال مرتبطون بزمن كانت فيه العادات ما زالت على خشونتها، والمبادىء الأخلاقية على أصولية غير معتدلة. لذلك قد يَسوء في عيننا احتيال أهود، ومقتل سيسرا على يد ياعيل، وتقدمة يفتاح ابنته ذبيحة، وغراميات شمشون، لكن هذه الأمور هي صورة حقيقية ودائمة للانسان بوجهه البشري وبنقائصه.

ويُعْتَبَر القضاة أعلاماً وضعهم الله على طريق توصل إلى البعيد، إلى الخلاص النهائي. من هذا المنظار، يبدون كأمثلة للأمانة (أنظر سي ٤٦:١١-١٢)، وكشهود للإيمان الذي يشدّنا نحو التحقيق التام للوعود (أنظر عب ١١:٣٢).

هدف سفر القضاة

يبيّن لنا سفر القضاة كم أن نشوء الوحدة بين أسباط إسرائيل كانت صعبة، واحتلال الأرض واستملاكها بطيئَيْن، والخصومات والمنازعات بين القبائل قوية، والإيمان بدائياً، والتهديدات

الخارجية جدية ومتواصلة. لكن القصص التي يتضمّنها السفر هدفت أساساً إلى إعطاء تعليمٍ، وهو أن الصعوبات التي واجهها الشعب الاسرائيلي عند دخوله أرض كنعان، لم تكن سوى امتحانٍ شاءه الله في سبيل التهذيب والتقويم، وعلى كل جيل جديد أن يكتشف ما سبق وتعلّمه الآباء والأجداد عند خروجهم من مصر، ومسيرهم في البرية، ودخولهم أرض الميعاد. والعبرة الأهم في هذه القصص، هي أن العقاب يكون نصيب الشعب في كل مرّة ينسى إلهه؛ على عكس ذلك، تشكّل العودة إلى الله والتوبة إليه (٣:٧-٩، ١٢-١٥) ينبوعَ خلاص له. هكذا يصبح تأمل الماضي أمثولة للحاضر وللمستقبل.

تهدف النيّة المخبوءة وراء القصص الأقدم التي في سفر القضاة إلى التعليم بأن الله هو السيّد المطلق، والمدافع عن اسرائيل، ومخلّصه عند الضيق والخطر. بالمقابل، على اسرائيل أن يخدم الله وليس سواه من الآلهة. إنّ اللّحاق بآلهة جديدة وغريبة، أي آلهة الكنعانيين، لا يقدّم أيّ عون للشعب المختار. لأن هذه الآلهة لا تخلّص (قض ١٠:١٤)، بل يهوه وحده الذي يفعل، وهذا ما يحقّقه على يد القضاة الذين يرسلهم من أجل هذه الغاية.

نشهد في سفر القضاة بروز نوع من القراءة الروحية لتاريخ اسرائيل. فإذا كان هذا الأخير ضحية أعدائه، فذلك بسبب خطاياه؛ وإذا كان الله يقبل بأن يحرّره منهم على يد قاضٍ يقيمه لشعبه، فذلك نعمة مجانية يهبها له بعد سماعه صراخه وتأوّهاته واستغاثته.

هيكليّة سفر القضاة

إن الترتيب العام لسفر القضاة هو عادة على الشكل التالي:

١- مقدمة أولى (١:١-٥:٢)

٢-مقدمة ثانية (٢:٦-٣:٦)

٣- القضاة (٣:٧-١٦:٣١):

أ- عتنيئيل (٣:٧-١١)

ب- أهود (٣:١٢-٣٠)

ج- شمجر (٣:٣١)

د- دبوره وباراق (٤:١-٥:٣١)

هـ- جدعون (٦:١-٨:٣٥)

و- أبيملك (٩:١-٥٧)

ز- تولع (١٠:١-٢)

ح-يائير (١٠:٣-١٦)

ط- يفتاح (١٠:١٧-١٢:٧)

ي- إبصان (١٢:٨-١٠)

ك- أيلون (١٢:١١-١٢)

ل- عبدون (١٢:١٣-١٥)

م- شمشون (١٣:١-١٦:٣١)

٤- ملحق أوّل (١٧:١-١٨:٣١)

٥- ملحق ثانٍ (١٩:١-٢١:٢٥)

سفر القضاة ومضمونه بالإيجاز

تبرز مقدمة السفر التاريخية باقتضاب عملية استيطان القبائل في كنعان (١:١-٥:٢) وتحرّك كل منها على انفراد، وتقدُّمها ببطء، ثم انهزامها. وترمي إلى تبيان وضع بني اسرائيل المهدّد بالخطر أيام القضاة، بسبب عصيانهم، كما يؤكّد ملاك الرب (٢:١-٥).

بعد ذلك تأتي القصص التي تخبر عن القضاة بالذات (٣:٧-١٦:٣١). لكن سلسلة القصص هذه تفتتح بمقدمة عقائدية (٢:٦-٣:٦) تدلّ القارىء

على الأمثولات الرئيسية التي عليه استخلاصها منها، وهي التالية: لقد تعرّض بنو اسرائيل لظلم أعدائهم لأنهم سبقوا فتركوا إلههم وساروا وراء آلهة الكنعانيين. فالخطيئة إذاً هي سبب المأساة أو العقاب، والندم والتوبة يجعلان الله يسامح ويرحم، فيحرّر شعبه مجدداً ويخلّصه. هكذا سمع الله أنين شعبه وصراخه، فأرسل إليه القضاة لينقذوه، ولكّن اسرائيل لم يتّعظ ويتعلّم، فسقط مراراً وتكراراً في خطاياه السالفة، وصنع الأسوأ في عيني الرب.

بعد هذه المقدّمة، يتبع تاريخ كل من القضاة على حِدَة (٣:٧-١٦:٣١)، بهدف تبيان الفكرة التي في المقدمة الثانية العقائدية. العديد من هؤلاء يمرّ ذكره بسرعة، وهم القضاة «الصغار» التالية أسماؤهم: شمجر، تولع، يائير، إبصان، أيلون وعبدون. أما بالنسبة إلى القضاة «الكبار»، فهناك قصَصٌ موسّعة تهدف خاصة إلى التأكيد على تعليم المقدمة العقائدية، وتشمل: عتنيئيل، أهود، دبوره وباراق، جدعون، أبيملك، يفتاح وشمشون.

وينتهي السفر بملحقَين يذكّران بالفوضى التي كانت سائدة في اسرائيل في ذلك العصر. يخبر الأول عن ارتحال قبيلة دان باتجاه الشمال وتأسيس معبد دان هناك (١٧-١٨)، والثاني عن الجريمة المشكِّكَة التي ارتُكِبَت في جبعه، وعن حرب القبائل ضد بنيامين الذي كان يرفض معاقبة المذنبين (١٩-٢١).

التاريخ في سفر القضاة

كما في سفر يشوع بن نون، كذلك في سفر القضاة، لن يجد القارىء في هذا أو ذاك تاريخاً علمياً، شاملاً ومتكاملاً، بل سلسلة من وجهات النظر الجزئية، جمعت ونُسّقت من أجل إعطاء تعليم لاهوتي معيّن. بالرغم من هذا، فإن السفر يتضمّن أخباراً ومعلومات صحيحة على ما يبدو، هي المرجع الوحيد للحقبة الزمنية الممتدة من موت يشوع وحتى قيام الملكية، علماً أنها تساعد فقط على تكوين فكرة عامة ولكن غير دقيقة عن زمن القضاة. فَقَبْلَ إنشاء الملكية، كانت تنقص بني اسرائيل الوحدة المتينة بين الأسباط، إذ إن الصلات بين هذه الأخيرة، باستثناء رباط القُربى، قد تتبدل بين التحالف والعداوة والتخاصم. لذلك كان لكل من هذه الأخيرة تاريخها، وهذا يعني أن الذكريات المتناقلة من جيل إلى جيل، والتي دُوِّنَت لاحقاً عن تلك الحقبة، ليست هي ذاتها للجميع. لقد حفظ التقليد الأدبي الشعبي هذه الذكريات عن طريق القصص المختلفة والمتنوعة والمتوارثة، حيث نجد الطريف، والمأساوي، والهزلي، والتندّري، والساخر، الخ.

إضافة إلى الاهتمام بالتاريخ، هناك اهتمام آخر مرتبط بالأول، ألا وهو، على سبيل المثال، إبراز دور المرأة الفاعلة، كدبورة مثلاً (قض ٤)، وشرح رتبة طقسية، كنذر يفتاح لابنته وتنفيذ ما وعد به الرب (قض ١١:٢٩-٤٠)، وإعطاء قدوة مجسّدة، كدعوة جدعون (٦-٨) أو شمشون (١٣-١٦).

إن التاريخ أو معظم التاريخ الذي نجده في السفر، وبالرغم من الإطار اللاهوتي القَشِف والصارم، يحتوي على عنصر الإثارة، إذ تشكّل الوجوه التي تملأه حياة، مثل دبورة، وجدعون، ويفتاح، وشمشون، ما يشبه استعراضاً لشخصيات هامّة من العهد القديم. فطبع هؤلاء، ومغامراتهم، وواقعية معظم أعمالهم الخارقة، يسمح باعتبارهم في مصافّ الأبطال العظام الذين نجدهم في مختلف الثقافات. وما يقرّبهم مثلاً من يشوع أو من داود من جهة، ويميّزهم

عن الأبطال المذكورين من جهة ثانية، هو كون الله مرجعيّتهم في حياتهم الشخصية وفي رسالتهم.

يعطي سفر القضاة صورة عن صراعات واضطرابات ذلك العصر؛ فالاسرائيليون لا يعيشون في وحدة سياسية، إذ كان لكل عشيرة أو قبيلة تاريخها وتقاليدها التي عُبّر عنها بقصص نموذجية من الأدب الشعبي، ينبغي أن تُقيّم استناداً الى أصلها والمواضيع التي ألهمت كاتبيها. لقد تّم تجميع هذه القصص بنيّة دينية أكثر منها تاريخية، وهذا ما يمكن أن يتبيّنه القارىء المتنبّه؛ فالمقصود هو إبراز يهوه يعمل في تاريخ شعبه، وتعليم هذا الشعب طريقة الدخول في تصميم إلهه من خلال الأمانة للعهد. لذلك فالتواريخ التي نصادفها في السفر تبقى جزئية، لأنّ الكاتب لا يهتم إلاّ قليلاً بهذه الأخيرة، بالمقارنة مع هدفه اللاهوتي والتعليمي. قد يكون مصدر بعض الأرقام المذكورة قديماً، لكن معظمها من وضع المحرّرين الذين يعبّرون عن مرماهم الديني من وراء القصة بنوع من الهيكلية العامة لسردهم. لذلك يصعب الحصول على تتابع للأحداث، منذ دخول العبرانيين أرض كنعان في أواخر القرن الثالث عشر، وحتى قيام الملكية مع شاول حوالي العام ١٠٣٠، لأنه ليس مستَبْعَداً أن يكون بعض القضاة معاصرين لبعضهم البعض ولكن في أماكن مختلفة.

بالرغم من كل هذا، يبدو سفر القضاة ذا أهمية بالنسبة إلى المؤرخ. فالمقدمة (١-٢:٥) تشكّل مصدراً قيماً من حيث المعلومات حول احتلال كنعان غير المكتمل. كما يعكس نشيد الفصل الخامس الحالة التي كانت عليها القبائل في الواقع. وبشكل عام، يمكن القول بأن القصص المدرجة في السفر تعطي صورة تاريخية مقبولة عن ذاك العصر المضطرب الذي كان فيه الإسرائيليون غير الموحّدين تحت تهديد الكنعانيين وخطرهم المتواصل والمتنوع.

خاتمة

من كل ما تقدّم، نستخلص أن تاريخ القضاة هو مخزن روحي، استودعه الكاتب وجوهاً مختلفة وعبراً متنوعة يستخرجها القارىء النبيه، ويستلهمها، ويعتبر بها، فتكون له مثالاً وتعليماً، لكنهما لا يكتملان إلاّ بالمسيح يسوع، ولا يُفهمان على حقيقتهما اللاهوتية إلاّ ضمن نور الروح القدس وإلهاماته. إذا كانت قصص القضاة تخلب العقول بحيويتها، وقوّتها، وجاذبيتها، وجمالها، فإنها كلّها تصبّ في صورة واحدة سابقة لملك اسرائيل الذي سينال روح الرب ليسوس الشعب بالحق والعدل؛ لكن هذا الملك لن يكون بدوره سوى صورة مسبقة للمسيح الآتي الذي عليه سيستقر الروح القدس، «ليبشّر المساكين، ويجبر منكسري القلوب، وينادي بعتقٍ للمسبيين، وبتخلية للمأسورين...، ويعزي النائحين» (أش ٦١:١-٢). إن أهمية سفر القضاة اللاهوتية والروحية تكمن في كونه يعدّ الطريق لرسالة الفداء والخلاص التي سيحققها الرب يسوع.